

# هَذَا مِنْ كِنَانِ يُسْمَى مُتَقَفًّا

## ريجيس دوبريه

كل مرة، على طريقته، «في موقف» عند اسفل جدار.

لقد انقضى، على ما اعتقد، زمن فلسفات الوعي والاخلاق البروتستانتية. ولقد عبر عالمنا الصغير كله عبر سارتر، لأنه كان غير قابل لأن يحاط ويُدار من حوله. وقد واصل معظمنا طريقهم. اما الذين لهم شأن مع نظرية اليوم ومع العلوم الانسانية، فسيكون لديهم كثير يقولونه في هذا الصدد، لأن التأخر فادح. ولكن ما بهم! ان الايديولوجية سبعة هالكة. والمعارف كذلك تذبل. اما الكتابة، فهي التي تصمد وتقاوم. وحين يكون مؤلف «نقد العقل الجدلي» قد اختفى، فسيبقى كتابه في التحليل النقدي عن فلوير. وسيبقى امامنا، في البعيد، مؤلف «الكلمات» (سيرتي الذاتية) تلك الرائعة بصيغتها الأصفى، البؤرة الصخرية المقاومة لتقلبات الزمن، احدى اكثف الأبنية في لغتنا.

واذن، أهذا كل شيء: كتاب، مقالات، حضور؟ ان لكل منا ان يعمل حساباته، التي تُعمل في الحقيقة من تلقاء نفسها وفي ظهرنا. ولكن سيظل ينقص حسابات المعرفة والأدب شيء جوهري: السلوك. المعارك القلمية بغير ما خسة، العناد بلا ضغينة، التغير بغير الانكار، الجدارة بلا تصنع، الذكاء من غير ضروب المهارة، وهذا كله من غير حسابات. وما أضخمه اذ تفكر به ثانية! هو ذا من كان يسمى مثقفا. لقد احسن سارتر صنعته، صنعة قديمة وجميلة، تريد الصناعة الكبيرة ان تخرجها من اللعبة.

كان مرتبطا اكثر مما يُظن بفكرة ما عن فرنسا، لأن صنّاع الكلمات لم يكونوا الاقل نبلا في القومية. «فرنسيون» هذا ما يجيبون به عندما تسألون، سواء في كاركاس او في دمشق. «آه! نعم...» ديغول وسارتر، كيف حالهما؟ «ما اعجبه عناقا بين رجل الدولة ورجل القلم اللذين لم يكن احدهما يجب الآخر، ولسبب وجيه. وتلك العداوة ايضا، هي شرف هذا البلد.

اهي فرنسا الأمس، الآن؟

لنحتفظ على الاقل بصورتها في قلب العين، ثمينة غالية. ليست هي بالتقية، ولكنها عنيفة. كإحساس بالندم، او ك مطلب. او الاثنين معا.

ترجمة «الأداب»

هناك الرجال العظام، تدفهم الكلمات العظيمة، ثم يعود كل انسان الى بيته. ذلك احتفال آخر من الاحتفالات. خطب، أوسمة، تماثيل. ثم هناك الآخرون، اولئك الذين ينبغي التحدث عنهم بعد الآن بصوت خافت، كمن يتحدث نفسه، بين اللحم والجلد. وهذه العظمة غير قابلة لأن تأخذ. بل اني أراها غير قابلة للانعكاس، اشبه بمساراة، اسمى بشكل نهائي. ان طقوس ماتم سارتر لن تنتهي، لأن القضية ليست قضية تشييع. اني أرى الموكب هنا كلقاء ثنائي يمثل من جانب بضعة مئات من آلاف الاشخاص، وهو في المواجهة. لن تكون ثمة جادة جان بول سارتر. والمرء يتحرر من الملحمة ومن الأسطورة بأيسر مما يتحرر من همسات ذاكرة جماعية.

من ذا الذي استطاع، في هذا البلد وهذا الزمن، ان يقيم مع صره علاقة مشابهة؟ ليس «العظيم»، رجل الفصاحات والبلاغات والكتب المدرسية. بل الحقيقي رجل الأيام والصحيفة خيبات موجعة، سخريات من التاريخ ومن تلك النكسات كلها، الصغيرة والكبيرة، التي تصنع النسيج المجزّع ذا اللونين المتعاقبين لتلك الحقبة: ١٩٤٠ - ١٩٨٠.

ان فيلسوف ايامنا الممطرة لم يبك، ولم يتهم، ولم يقدر - بل حاول فقط ان يفهم، وان يجعل الآخرين يفهمون. وان جميع مثقفي عصرنا، من بيونس ايرس الى بيروت، انتسبوا ذات لحظة من حياتهم الى «اسرة سارتر»، بل ان خصومه أنفسهم كانوا يرون فيه عدوهم الحميم. ذلك انهم قد تعرفوا عبره، ما بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين، الى عصرهم، وبه دخلوا الحلبة.

انني اضع نفسي في المعمة: ولكننا كنا اكثر من واحد في «الليسيه» في الخمسينات الذين كان «الوجود والعدم» يرعش منهم القلوب. ومن ذا الذي، بين الثلاثين والاربعين، من لم يكن له مع سارتر «جلسة استيضاح»، سواء وراء باب مغلق، او في غيابه، حتى ولو على بعد خمسة آلاف كيلو متر؟

ولقد كانت لي معه، ذات مرة، جلسة بصوت عال. حزينة كانفصال جسدين. اننا عشرات الألوف الذين دُفَعنا سارتر، ذات يوم، ومن غير ان يريد ذلك، الى ما كان يسمى سابقا «امتحان ضمير». ولو انه لم يكن «ضمير» عصرنا الأكبر، لما أزعجنا الى هذا الحد، ولكننا تركناه معلقا مرة الى الأبد على صخرة من مرمر، إنه لم يعطنا كتابه عن «الأخلاق»، ولكنه فعل أفضل من ذلك: كان يضعنا